الحلقة الخامسة

(1) (مشهد موكب صلاة الجمعة في الآستانة.. الجامع الحميدي.. العساكر مشاة وفرسانا يأتون من أطراف الآستانة.. أعداد كبيرة تربو على عشرة آلاف.. يجتمع العسكر في ساحة المسجد أمام السراي، ويصطفون صفوفا بعضها وراء بعض.. تتسابق مركبات قواد الجيش والوزراء والمشايخ والسفراء الأجانب.. يجلس السفراء ومن معهم من علية قومهم الوافدين إلى الآستانة في قاعة مطلة على ساحة المسجد.. الأنفاس محبوسة انتظارا لقدوم السلطان.. يحين وقت الصلاة وتصل المركبة السلطانية المذهبة من مطلع السراي تحمل الإمام.. قواد الجيش في ملابس ذهبية وعلى صدورهم الأوسمة يحفون بالمركبة.. بين قواد الجيش يشاهد علي باشا.. بين الشيوخ يشاهد يوسف الأسير.. بين السفراء يشاهد السفير الألماني..)

(2) مشهد داخلي للجامع بعد الصلاة.. الإمام في خطبته يؤكد على التسامح الديني والتشريعات الاقتصادية للباب العالي ومحاولات الإصلاح الزراعي.. يتحدث عن القروض التي لجأت إليها البلاد الإسلامية من البنوك الأوربية فأوقعتها في الديون وفي شراك التبعية المالية.. يهاجم المصارف وشروطها الجائرة وفوائدها الباهظة ويصفها بأنها رجس من الشيطان..

الخطيب: إن تسديد القروض الأجنبية يتطلب موارد جديدة، وهناك بلدان تصرف تسعة أعشار ميزانيتها لإيفاء الديون.. هذا ما يجري في البلدان التي رفعت راية التمرد على الدولة العلية.. إن قروضها لم تنفق على مشاريع اقتصادية ترفع سوية الناس في المدينة والريف بل على تحديث جيشها والإنفاق السخي عليه للعدوان على غيرها، وعصر شعوبها بالجباية لصالح المرابين الأجانب الذين أصبح لهم الحق في ابتياع الأرض لقاء مدافع وأسلحة استخدمت في العدوان على جاراتها، واستخدمت في شق عصا الطاعة على الدولة العلية المسلمة التي تحمي دار الإسلام..

(3) (مشهد خروج المصلين من الجامع.. يلتقي يوسف الأسير بأحمد فارس الشدياق.. أحمد ربع القامة، كبير الأنف، واسع العينين مع بروز وحدة.. يرتدي الملابس العصرية)

أحمد: إن لم تخني الذاكرة فأنت الشيخ يوسف الأسير، أليس كذلك؟

الشيخ: نعم فمن حضرتك؟

أحمد: التقينا في منزل فان ديك في بيروت قبل أن أغادرها، ألا تذكر أحمد فارس الشدياق؟ (يتعانقان)

الشيخ: كيف لا أذكره؟ منذ وطئت قدماي الآستانة وفي نيتـي وفي ذهني أن أزورك في دار الجوائب التي ذاع صيتها في كل بـلاد المشرق..

أحمد: وأنا أيضا سمعت بمقدمك وتقت لرؤيتـك.. ومـا دام لقاؤنا قد تم صدفة فلا يجب أن تمر هذه الصدفة دون أن نوثقها بمزيـد من التواصل.. هل أنت وحدك هنا؟

الشيخ: نعم، أنزل في دار الضيافة..

أحمد: مر بي غدا في دار الجوائب فبيننا أحاديث تطول..

(4) (مشهد في جريدة الجوائب.. العمال يقومون بأعمال التنضيد والطباعة)

(5) (مشهد في مكتب صاحب الدار)

الشيخ: عرفت أخاك أسعد رحمه الله.. كان نابغة عصره ذكـاء وفطنة وكثيرا ما كنت ألتقي به عند فان ديك فيدور بيننا الحوار الممتع عن الأديان.. كم كان صاحيا فطنا صلب الرأي! إن سيرته علـى كـل لسان في بيروت.. ليس هناك من إنسان حر شريف لا يتملكه الغـضب لما جرى له على يد بطريك الموارنة في دير قنوبين.. أن يموت شاب في ريعان الصبا وعنفوان الشباب وهو يسام العذاب ألوانا لأنه يفـضل المذهب الإنجيلي على مذهب والديه لأمر في غاية الفظاعة!

أحمد: إن أسعد كان أخي الأصغر وكنت شديد التعلق بـه ولقـد فجعني موته حتى كرهت الدنيا ومن عليها.. هز موته أعماقي وانجلـى لذهني طبيعة الجمود والوثنية التي انحدرت إليهـا الأديـان.. إن بـين المسيحي الأرثوذكسي والمسيحي الماروني والمسيحي البروتستانتي من العداء أكثر مما بينهم وبين المسلمين، وأكثر مما بينهم وبين اليهود..

الشيخ: كثيرا ما كان يجري الحديث بيني وبين فان ديك عنك..

أحمد : إن لفان ديك فضل كبير علي، فإرساليته هي التي بعثت بي إلى الدراسة في مصر فلبثت فيها بين دراسة وتعليم حتـى أتممـت دراستي في الأدب واللغة..

الشيخ: إن الإرسالية الأميركية لها فضل على ولـدي إذ بعثـت بهما لدراسة الطب في مصر، وكان هذا بمساعي فان ديك، وهما على وشك أن يتخرجا..

أحمد: إن فان ديك من أكبر دعائم النهضة العلمية في بلادنا..

الشيخ: أي والله! إنه جمع من الفضائل والحسنات ما يحلو للنفس تقليده والإقتداء بصاحبه..

أحمد: إنسان عصامي مستقل الفكر، واسع الأفق، مؤمن بمذهبه محترم لمذاهب وأديان غيره، قد جعل ديدنه العلم، ونشر كنيسته التـي يرضي بها ربه..

الشيخ: هذا ما حببني فيه.. كم من رجل عرفت كان لـه فـضل عليه.. إن منزله كان منتدى لكبار رجال النهضة.. عرفت عن طريقـه بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، ويوحنا ورتبات الذي تعلم الطـب على يديه..

أحمد: على ذكر بطرس البستاني، صدر له مؤخرا قاموس محيط المحيط، وأهداني نسخة منه وهو في مجلدين..

الشيخ: لقد أهدى أيضا نسخة إلى السلطان وأخرى إلى الـصدر الأعظم كما علمت من علي باشا، ونسخة إلى نظارة المعـارف حيـث أعمل فيها في رئاسة التصحيح..

أحمد: على فكرة إنني أحتفظ بنسخة التـوراة والإنجيـل التـي ترجمها فان ديك وقمت أنت بتصحيحها.. والتي أهداني إياها في آخـر مرة زرته فيها قبل هجرتي من بيروت..

الشيخ: أذكر ذلك، وأذكر تعليقه حينذاك.. يا فـارس، لا تجعـل تعصب اللاهوتيين واختلاف آرائهم يسلبانك إيمانك في مبادئ الديانـة المسيحية.. إن الدين الحق هو ملجـأ لنـا فـي مـصائبنا وأمراضـنا وشيخوختنا..

أحمد: كم ترك كلامه من أثر في نفسي، وأنا أغرق في لجة من الحزن والغضب ورغبة الانتقام إثر مصرع أخي.. بل مرت بي أحيان كنت أشعر فيها بقلبي خاويا من الإيمان، ولكنني أخيرا وجدت انتمـائي الذي أرتاح إليه فاعتنقت الإسلام..

الشيخ: بودي لو أعرف منك كيف جرى هذا الأمر..

أحمد: كنت قد نظمت قصيدة أمتدح فيها السلطان عبـد المجيـد على أثر الحرب بين الدولة العلية والروسية بعثت بها عن طريق السفير التركي في باريس قلت في مطلعها:

الحق يعلو والصلاح يعمـ ـر والزور يمحق والفساد يدمر
يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا متطوعين إليه حتى تؤجروا
وتمسكوا بالعروة الوثقى من الصبر الجميل على القتال وزمروا
يغنيكم التكبير والتهليل عـن أن تعملوا فيهم سلاحا يبـتر
لو لم يكن منكم سوى نفر لما غلبوا فكيف بكم وأنتم أكـثر
أنتم عباد الله حقا فاعبـ ـدوا للدين فهو بكم يعز ويجـبـر
والله قد وعد المجاهد منكـم فتحا مبينا في الكتاب فابشروا
ويبوئ الشهداء خير مبـوئ جنات عدن ملكها لا يغبـ ـر

أحمد: إن أبيات القصيدة تزيد عن مائة وثلاثين بيتا ولقد اختـار منها مغن عربي يعيش في الآستانة عددا من الأبيات وترجمـت إلـى التركية شعرا وغنيت.. وسأدعو ذات يوم المغني إلى منزلي وأسمعك إياها..

الشيخ: كم أحب ذلك!

أحمد: كان لهذه القصيدة وقعها الحسن لـدى جلالتـه وكوفئـت عليها.. كنت حينذاك مقيما في باريس، فاستدعيت إلى تونس لأحرر في جريدة الرائد التونسية الرسمية، وعرض علي الباي أحـسن منـصب لديه.. وهناك اتخذت قراري فاعتنقت الديانة الإسلامية على يـد شـيخ الإسلام وسميت أحمد.. لقد نلت من الإكرام في تونس ما يعجـز عنـه الوصف، فما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقا ينفق فيها، ولكـن إذا أراد الله بعبده خيرا لم يعقه عنه الشعر ولا غيره.. وبعد فترة طلبني الصدر الأعظم من الباي للقدوم إلى الآستانة لأتولى تصحيح الطباعـة فبقيت في هذا المنصب بضعة أعوام ثم أنشأت جريدة الجوائـب التـي طار صيتها في مصر والشام والمغرب والعراق وسائر بلاد العرب..

الشيخ: حقا إنها لجريدة جامعة فيها من كل لون: السياسة والأدب والشعر، وهي الأكثر رواجا عندنا في لبنان..

أحمد: ما رأيك أن تكتب فيها أشعارك ومقالاتك؟

الشيخ: يا حبذا لو يتاح لي ذلك..